فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾. فلما سمع الشيخ هذه الآية ظهر الغضب في وجهه وقال: صدق الله العظيم، ثم أطرق ساعة، ثم رفع رأسه وقال في صوت تحطمه العبرة: لا تَتْلُ هذه الآية يا فلان، ولكن اتْلُ قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ أما إن أخاكم لا يستطيع إلى الحج سبيلًا، وقد كنتم أحرياء أن تَبَرُّوه وترفقوا به وتصلوا خيرًا مما فعلتم، ثُمَّ أطرق إطراقة قصيرة وهو يتلو: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾. ثم طال صمت الشيخ وصمت أصحابه، لا يقول الشيخ شيئًا، ولا يجرؤ أحد من أصحابه أن يقول بحضرته شيئًا، وصاحب المقالة مُسْتخذٍ قَد خفض رأسه حياء، والقوم قلقون لا يدرون كيف يستأنفون ما كان عليه أمرهم من غبطة ورضا، فلمَّا طال عليهم هذا الصمت المُخيف اجترأ مسعود فقال: سبحان الله! ثم اتجه إلى الشيخ وهو يقول في صوته المتهدج: ما إغراق مولانا في هذا الصمت المخيف؟ إنَّا كغيرنا من الناس نخطئ ونصيب، ولكننا نحسن أن نتوب إلى الله من خطايانا، فلا تعذبنا بهذا الإعراض، ومر بما تشاء. فرفع الشيخ رأسه وهو يقول: غفر الله لمسعود! أما فلان — يريد صاحب المقالة — فيغيب عني وجهه ثلاثة أيام، ثم يلقاني إذا صُليت الصبح، فعسى الله أن يُرضي عنه قلبي. هنالك تَنَحَّى صاحب المقالة مُستخذيًا لا ينظر إلى أحد، ولا يكاد ينظر إليه أحد، فلما انصرف قال الشيخ لأصحابه: لا تهجروا أخاكم، ولكن واسوه وأحسنوا النصح له، أمَّا أنت يا مسعود، فإذا عدنا من حجنا، فازفف إلى خالد أهله، فإنَّ ذلك سيرفه على عليّ. قال مسعود: سمعًا وطاعة يا مولاي.

ولم تمض على عودة الشيخ وأصحابه من الحج أشهر حتى كانت امرأة خالد قد زُفَّت إلى زوجها، وحتى كان خالد قد اتَّخَذ له في المدينة دارًا مستقلة أقام فيها مع أهله ومن وكل مسعود بخدمة ابنته من الرجال والنساء، وقد أصبحت دار خالد دار الرغد والخير، لا تنقطع عنها هدايا مسعود على ابنته وصهره، وكان مسعود يلم بابنته بين حين وحين، فيوصيها بنفيسة وابنتيها خيرًا، ويلقي إليها في السر أن تبرَّ عليًّا وبنيه، فما أكثر ما كانت ترسل «مُنى» إلى دار علي بالطرف والهدايا على علمٍ من زوجها حينًا، وعلى غير علم منه في أكثر الأحيان، تُهدي مرة إلى هذه، ومرة إلى تلك من أزواج الشيخ، والشيخ يرى هذا فلا يهتم له أول الأمر، حتى إذا كثر ذلك من «مُنى» خلا إلى ابنه ذات يوم فقال له: يا بني، لا تُثقل على أهلك ولا على حميِّك؛ فإنَّ في بعض ما ترسلون إلي مَقنعًا. قال خالد: والله يا أبت ما تكلفت شيئًا وما علمت أنَّ امرأتي تكلفت شيئًا، وإن الخير لكثير،